يعقوب

• أحمد هيبي

يعقوب الذي أعرفه ليس يعقوبَ الذي تعرفونه.

ليس يعقوب اليهوديّ، ولا يعقوب اليونانيّ، ولا حتّى يعقوب العربيّ.

قد يكون واحدًا من هؤلاء. وقد يكون هؤلاء مجتمعين. إنه يعقوبي أنا. يعقوب الذي يلازمني. يلازمني كظلّي. فلا أكون في مكان إلا وجدتُه. يسبقني أو يجري خلفي. فحيث أكون يَظْهر. وحيث أعيش يَنْبت تحت أنفي. في التربة نفسها، وفي العصر عينه، وفوق الكوكب ذاته.

اسمُه سعيد أو جون أو جنكيز، غير أنّ هذه ليست أسماءه الحقيقية. فاسمه الحقيقيّ هو يعقوب، ولكنّه يغيّرهُ في كل مرة. وليس اسمه فقط هو الذي يغيِّره بل يغيِّر شكلَه أيضًا. يغيِّر جلدَه حتى أكاد لا أعرفه. وقد أعاشره ولا أتبيّن أنّه هو. ولكنّ هذا لن يطول، إذ عاجلاً أو آجلاً سوف يظهر على حقيقته... ولكنْ بعد فوات الأوان.

في البداية أكاد لا ألحظه. وقد تسير أموري سيرًا حسنًا. وكمراهن يَكْسب في الجولات الأولى، أُحبّ وأُصادق وأَعمل، وقد أكوِّن أُسْرة. وأصيب بعضَ النجاح. وتغمرني السّعادة أيضًا. وتأخذني صروفُ الحياة. ويأسرني زخرفُها وبهرجُها، حلوُها ومرُّها. وتجري حوادث كثيرة، جليلة وحقيرة. وفجأةً تختلط الأمورُ عليّ. وتسير حياتي شيئًا فشيئًا في الاتجاه الخطإ. غلطة صغيرة تَقْلب نظامي رأسًا على عقب.

وكما يُسقِط حجرُ الدومينو الحجرَ الذي يليه، وتتسارع السقطاتُ، هكذا تستفحل أخطائي، ويَجرّ بعضُها بعضًا، فأقع في المحظور. ولا أستبعد اليومَ الذي يلتفّ فيه حبلُ المشنقة حول رقبتي، أو تقتلني رصاصةٌ طائشة. أو يَبْقر بطني خنجرٌ مسمومٌ في عتمة الليل. لا أستبعد أن أصبح ضحيةَ أعدائي، أو جلاّدهم. أحوك المؤامرات أو أقع في شباكها. أَقتل عدّوي أو يقتلني.

فإذا انقشع الغبارُ وزالت الغشاوةُ عن عيني، تبيّن لي ـ بعد فوات الأوان ـ مدى سذاجتي وغبائي، وعرفتُ فظاعة خطإي:

فالذي كان هو يعقوب، والذي قتلتُه أو قتلني هو يعقوب، والذي كان السبب هو يعقوب، وكلُّ ما حدث كان لعبةً من ألعابه وفصلاً جديدًا من فصوله. وفي غفلتي لم أكن أعرف ذلك.

إنّي لا أتعلّم من أخطائي. فهل هذا ذنْبي؟ أَغْرق في نسياني، وأَرْكن إلى الهدوء الشامل حولي. يعقوب الشاميّ أو يعقوب المصريّ أو الهنديّ، كيف أستطيع أن أميّز؟ وما الذي سيجعلني أتذكره إلا بعد أن تنطلي عليّ لعبتُه؟ إنّه يتّخذ شكلَ جارٍ أو زميلٍ في العمل جاء به صديقٌ لا تشوبه أيّةُ شائبة. يكون مرّةً شابًا، ومرّةً عجوزًا. وقد يأخذ بيدي في البداية، يتقرب منّي، يثير همّتي أو حماسي .. ولكنْ إلى حين.

فهذا شرك. شرك منصوب سلفًا. أو هكذا أتصوّره. شرك يَنْصبه لي يعقوب. وأنا الذي أقع فيه. أَسْقط فيه مهما كنتُ أَحْذر الاقترابَ منه. أظلّ أتحاشاه حتى أقع فيه. أجري وأنا أبتعد عنه، حتى أَكتشف في النهاية أنّني في الحقيقة كنتُ أجري وراءه أو أدور حوله. لا أتعلّم من دروس الماضي، ولا أستفيد من ثقافتي أو معارفي. فسرعان ما يتكشف الصّديقُ عن عدو مُقَنّع يَتبع أثري. وفي عودة إلى الوراء أَكتشف سلسلةَ أخطائي، وأتذكّر ما كان يقول لي، أو ما كان ينصحني به. فماذا أجد؟ أنّه كان يضيّق عليّ. كان يُفسد خططي. كان يسرق أفكاري. كان يقلّدني. يَظْهر بمظهري حتى لا يستطيع الناس أن يفرِّقوا بيننا. يخلطون بيننا. يظنّون أنّني هو. يأخذ شكلي. ويقترف الآثامَ باسمي. يؤلِّب الناسَ عليّ. باسم الزمالة يَصْنع ذلك. بعد فوات الأوان أَعْرف، وبعد أن يَسْبق السيفُ العذل.

فكم مرّةً سبق السيفُ العذل؟

وكم مرّةً قطع البتّارُ ما لم يستوجب القطع؟

كم مرّةً لقيتُه، وكم مرّةً تقاطعتْ حياتانا؟ سارت الواحدة بجانب الأخرى، متعايشتيْن، تنموان ببطء، وتمتدّان إلى الأمام، ثم تصطدمان. تدمّر الواحدةُ الأخرى كشهابيْن نارييْن اصطدما في السماء وتبعثرا قطعًا باردةً في أرجاء الكون الرّحب.

أَذكر مرّةً التقينا، في عصر سحيق في القِدَم. ولكنّي أَذكر ذلك كأنّه حَدَثَ البارحة. كنا نعمل أجيريْن في رعي البقر. وكان ينقضي النهار فلا يكاد الواحد فينا يرى صاحبَه في هذه البراري الواسعة التي هَجَرها الناسُ. وربما انقضت أيام طويلة ونحن على هذه الحال، لا نكلّم إنسانًا، إذ نكون بعيديْن الواحد عن الآخر. وكانت الوحدة الفظيعة هي ما يَحْمل الواحدَ منّا على أن يلتمس عند صاحبه بعضَ الأنس والألفة.

لم تكن حياتي تعسةً دائمًا. فأنا أحبّ الوحدة، وأبتعد عن زحمة المدن. ومازلتُ أَذْكر الليالي المقمرة التي كانت تَجْمعنا متسامريْن، بينما أبقارُنا ترعى منتشيةً في مقاثٍ لمعتْ بطيخاتُها في ضوء القمر. سعيديْن نكون لسعادتها.

كنّا نخرج في الصباح ونعود في المساء، مجتمعيْن أو كلاً على حدّة. وكم من مرّة قضينا الليلَ نبحث عن عجْلٍ ضلّ طريقَه، لنعود به إلى حظيرته. وينادي الواحدُ منا الآخرَ من فوق قمم الجبال، فلا يَسْمع إلاّ صدى النداء. ثم يُطْبق السكونُ لا يقطعه إلاّ صوتُ الريح أو سقوطُ المطر.

كان يعقوب في مثل سنّي. ولكنّه كان نقيضي على التمام:

كنتُ أحبّ الطبيعة، وكان يكرهها. عافت نفسُه حياةَ البراري وتاقت إلى حياة النُّور والضوضاء في المدن الكبيرة، بينما كنتُ أحبّ التأمُّل وأُغرق نفسي في حياة السّكون. كان نزقًا يحبّ اللعب ويجد فيه أقصى نشوته، وكنتُ أَكره اللعبَ وأنأى عن المزاح.

كنتُ أُشفق عليه، ولكنني لا أستطيع أن أساعده. وأظنه انقلب عليّ حين وجد بي الشخصَ الوحيدَ في العالم الذي يستطيع أن يلومَه أو يوجّهَ إليه سهامَ ثورته وسخطه. كان يكره العمل ويحب حياة الناس. وكنتُ نقيضَه: أجد حياة البقر ملاذًا آمنًا من الحياة بين الناس. وكثيرًا ما كان يحرّضني على الهرب وتركِ العمل المملّ في هذا المكان. كان يقول لي ساخرًا: «أنظرْ إلى نفسك؛ لقد صار وجهُك يُشْبه وجوهَ البقر.»

وبالفعل، كان الوجوم والسّكون جزءًا من طبيعتي. وكان يعقوب يقول إنّي تعلّمتُ ذلك من البقر. وحين كنتُ أصطحب معي كتابًا إلى المراعي، كان يعقوب يثور ويقول إنّي زهدتُ في صحبته. كان يريدني أن أجاريَه. كان يريدني مثلَه: أن أركضَ وراء الأرانب البَرية، وأَنْصبَ الشراكَ للغزلان، أو أتحرَّشَ بالثيران. فإذا عافت نفسُه هذه الألعاب، تفرّغ للتحرّش بي.

كان يريدنا أن نتقاتل وأن نتحارب بالعصيّ وبالسكاكين، فيغلب الواحدُ الآخرَ، ويطرحه أرضًا، ويمرّغ أنفَه بالتراب، ولا يتركه حتى يَنْزف دمًا.

وكنتُ أحاول أن أجاريه. ولكنّ ألعابه لم تتوقف عند حدّ، وثورته لم أعرف كيف أهدّئها. فإذا توقفتُ عن اللعب تحدّاني من جديد، وانهال عليّ بالضرب. وقد يعمد إلى كتابي يمزّقه. وكنتُ أغضب منه. ولكنّه لم يُقِمْ لغضبي وزنًا، بل كان يَقْصد إغضابي لنعود إلى القتال من جديد.

وكان يتركني أستحمّ في النهر فيعمد إلى ثيابي يخبّئها، أو يلقيها في الماء، أو يأخذها ويبتعد. أو كان يعمد إلى طعامي فيرشّ عليه التراب. ولا يزيده غضبي أو توسلي إلاّ غيًا. وأظنّ أنّ عنصر الشر كان متحكّمًا فيه، بل كثيرًا ما كان يصرّح هو نفسُه بأنّ شيطانًا قد ركبه.

كلّ ألعاب يعقوب تحمّلتُها بصبر وبأناة، إلى أن كان يومٌ لجأْنا فيه إلى كهف اتقاءً للمطر. وسبقني يعقوب في الخروج فجأةً، ودحرج حجرًا كبيرًا من الحجارة التي يضعونها عند أبواب الكهوف ليغلقوها من الخارج. بقيتُ محبوسًا في الداخل. يمنعني من الخروج حجرٌ من المستحيل

زَحْزَحَتُه من الداخل. ولم تُجْدِ توسُّلاتي إليه أن يكفّ عن المزاح ويتركَني أخرج. وانتظرتُ ساعةً علّه يثوب إلى رشده، ولكنّه لم يفعل. وعندما ناديتُه من الداخل لم يردّ. كان قد ابتعد.

جائعًا ويائسًا وخائفًا، حاولتُ بما تبقّى لي من قوة ومن رغبة في الحياة أن أجد لنفسي مَنْفذًا إلى الخارج. فحفرتُ أصابعي في التراب والصخر حتى نجحتُ أخيرًا في الخروج. كنتُ قد قضيتُ في الداخل أيامًا. لم يَعُدْ الأمرُ مزاحًا: لقد كان محاولةَ قتل، وربمّا خطةً مدبَّرة.

لحقتُ به. أردتُ أن أَفْهم سرَّ تصرُّفه الغريب معي. فلم يزد على أن نَظَرَ إليّ شزرًا، غيرَ عابئ بي ولا بسؤالي. وهنا جُنّ جنوني. فقبضتُ عليه وقد أعماني الغضب. لم أعد أذكر ما حدث بعد ذلك. ولكنّي رأيتُ وجهَه قد تخضّب بالدم. كان هو قد أنشب أظافرَه في رقبتي. وبدل أن يستكينَ ويعتذِر جعل يقاومني بكلّ ما يملك من قوّة. وتبادلنا الضرب. كان كلّ واحد منا يعرف أنّ نجاته تكمن في موت رفيقه. ولم أدرِ كم مضى من الوقت عندما كفّ عن المقاومة. وسقط على الأرض.

لقد مات.

لم أصدّق ما اقترفتْ يداي. ويبدو أنّي بقيتُ أضربه حتى بعد أن فارق الحياة. لم أدرِ ماذا أفعل. حاولتُ إحياءه فلم أستطع. لم أكن رأيتُ إنسانًا ميتًا قبل ذلك. ولكنّ وجهه ذكّرني بوجه ثور ميّت.

ابتعدتُ عن المكان. حاولت أن أنسى ما حدث. لكنّي لم أستطع. عدتُ إليه علّه يكون قد صحا، آملاً أن تكون هذه لعبةً من لعبه. ولكنّه كان لا يزال ممدّدًا كما تركته. حاولتُ أن أدفنه، لكنّي خشيتُ أن يكون حيًا، وأن يعود إلى الحياة بعد حين. ولذلك تركتُه وولّيتُ هاربًا، عابرًا الحدودَ إلى مكان جديد وزمان جديد.

عملتُ مرّة عتالاً في ميناء على شاطئ البحر. وتقرَّبَ مني في العمل زميلٌ يدعى إبراهيم، فأصبحنا صديقين حميمين. كنتُ أشكو لإبراهيم سوء حظّي. وخطر لي أن أتخلّص من شقائي وأهربَ في سفينةٍ عائدةٍ إلى بلاد بعيدة وراء البحر. لم أجد غيرَ إبراهيم لأُطْلِعه عل خطة هربي. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما كَشَفَ خطتي لصاحب العمل الذّي أراد طردي، ولم يُثْنِه عن ذلك إلاّ إنكاري. وهكذا أَفْسد إبراهيم خطتي وأخَّر هربي فترةً طويلةً من الزمن.

فلّما هربتُ بعد ذلك وحَشَرتُ نفسي في حجرة مظلمة على ظهر سفينة عائدة، اكتشفتُ أنّ إبراهيم قد لحق بي وحَشَرَ نفسَه في الحجرة ذاتها. وفي ظلمة الحجرة رأيتُه:

إنّه هو يعقوب لا غيره!

ثارت ثائرتي. فلماذا يَلْحق بي هذا الخائن وبأيّ حق؟ ولم أكن أستطيع أن أطرده لأنّه سيَكشف أمري، ولا أن أستبقيه فأنا لا أطيقه. وهكذا نشب عراكٌ دامٍ بيننا انتهى بقتلي. وقَذَفَ بي يعقوب في عرض البحر بعد أن هشَّمَ رأسي.

وكانت مرة ثالثة ورابعة. وتوالت عصور جديدة، يلي بعضُها بعضًا، أو يوازي أحدُها الآخر. وكنّا نلتقي أنا وهو في ظروف مختلفة، في بلاد مختلفة، وتحت أسماء مختلفة. يلقاني وألقاه. أعرفه ويَعْرفني. ينظر الواحدُ في عينَي الآخر. يحاول أن يتحاشاه. يحاول أن لا يعيد الماضي. ولكنّ هذا لا يُجدي فتيلاً؛ فدائمًا كانت تتقاطع دربانا.

تجري الأمور عاديةً في البداية. ثم ينشب الخلاف. ويتدرّج إلى أن يصبح عداوة مستحكمة. دون أن ندري. دون أن نحسّ. وفجأة يرتفع السّيفُ أو تنطلق الرصاصة. وتُسمع الصّرخةُ ذاتُها في عتمة الليل، أو في وضح النهار. صرخةُ الموت. يقتلني أو أقتله.

التقينا في اليونان. وقتلني في الهند. وقتلتُه في روما. وقتلني في إسبانيا. والتقينا في فلسطين. واقتتلنا في الحروب الصليبية. كان جون صليبيًا غازيًا مع الذين حاصرونا في عكّا، وكنتُ مع جيش صلاح الدّين. وكان يقيم في معسكر خارج الأسوار. وكان جون لا يزال يناوش

جنودًا حتى بعدما أُعلنتْ هدنة قصيرة بين المتحاربين. وعندما عَرف اسمي لم يكفّ عن الاستفزاز، وصار يناديني باسمي ساخرًا مني، جاعلاً منّي موضعَ استخفاف الجميع. وداوم على هذا الأمر مدة طويلة. وأخيرًا عرفتُه: إنّه يعقوب الذي اتخذ اسم جون. فخرجتُ إليه وقتلتُه. وقطعتُ رأسَه وعدتُ به إلى داخل الأسوار. أما جثته فقد تركتُها نهبًا للكلاب.

هربتُ منه إلى عالم الحيوان. وولدتُ بين الحيّات. فكان نسرًا. واقتتلنا في الصحراء قتالاً مريرًا. ولكنّه تغلّب عليّ، ورفعني بمخالبه إلى السماء وأسقطني فوق صخرة عظيمة هشّمتْ رأسي.

وفي حياتي الثانية تحوّلتُ أنا إلى نسر. فصار هو ثعلبًا. وغافلني مرّةً وقضى عليّ في هجمة واحدة. وتحوّلتُ أنا إلى ثعلب فظلّ هو على صورته. وقتلتُه في ليلة مقمرة عندما حاول اغتيالَ واحدٍ من جرائي. وصرتُ ذئبًا فتحوّل هو إلى أسد. فمتُّ ممزّقًا بين أنيابه في مغارة قريبة من بلاد الشام.

ثم تحوّلتُ إلى عالم الجماد. فلم يتخلّف عني أيضًا. وظلّ يَظْهر على صورتي، أو على صورةِ نقيضي من المركّبات التي تُفْسد صفتي. وظلّ الوضعُ على هذه الحال.

حتى تحولّتُ مرّةً بإذن الله إلى كوكب. وعشتُ لسنوات طويلة أدور حول نفسي، فرحًا أخيرًا بوحدتي وبعزلتي. ثمّ جاء هو أيضًا، لا أدري كيف، وصار يدور حولي. قلقًا عابثًا ظلّ يدور على مقربة مني. وأنا أدور حوله، كذئبيْن أمسيْنا يُمْسك الواحدُ بذيل الآخر.

وهكذا...

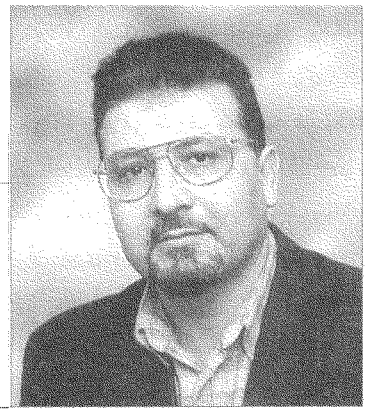

د. أحمد هيبي (شعب ـ ١٩٥٥):

يقيم اليوم في قرية كابول. يعمل محاضرًا في الكلية الأكاديمية العربية في حيفا في موضوع الرياضيات. أصْدر عددًا من المؤلفات في ألوان أدبية مختلفة، ورأس تحرير مجلة **المنبر**. حصل على جائزة المسرح المحليّ.